كان وقبائلها «21»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان الخواء
يحجل على ساق واحدة
ويتنطّط فوق حبال الواقع المتداخلة..
يصفّر لحناً حاد الرنين
وينتّف إبط الاحتمالات
والحكمة التي لم تجد طريقها بعد.

كان الخواء
يتحسس معطف القناعة
ويفصّل لمتاهاته جيوباً إضافية
وقبيلة محصّنة بماضٍ لاذع
وتقاليد نافرة من سيرة
الأنثربولوجيا.

كان الخواء
ينقف جدران الخرائب
بحثاً عن طموحٍ معاق
وشمس تسرد قصّتها المنطفئة..
وخيمة لم تشعل في الجدب
نار القِرى، ورِبابة تؤاخي عواء الذئاب.

كان الخواء
يحاصر نفسه، ويدور حول اللاشيء،
يزفر خطاه المتلاحقة
ويقبض على صفات الريح
وأشباه العواصف المتناسخة..
يعتلي ظنونه الراسخة
ويلقي على حصى الشك
دروسه في تأويل النصوص.

كان الكدر
يشرح لهواة الشعوذة
موقفه المحايد من غضب البنادق،
ويتنحنح كثيراً
كلما سُئل عن معنى الوطن؟!

كان الكدر
يشدّ تجاعيد وجهه
ويقف في الشارع يستجدي الميوعة
ويحث أبناء العواءات
على التنديد بالسلام.

كان العبث
يلغي الانتماء من نشيد الصباح
ويمجّد زامل القبيلة
وعربدة الأوهام وهذيان الخرافة..
يحشو الأفواه برماد الشعارات
ويقود الخُطى نحو هوّة الفراغ.

كان العبث
يرتدي أزياءه المموّهة،
ويمنح نفسه صلاحيات واسعة،
يضع على رأسه جبّة العارفين
وعمامة الغائمين وقبّعة صيادين الغابات،
ويوشّح صدره بأوسمة ونياشين الخسارات
المبكرة،
ويبرم شاربيه داعياً خصومه إلى المبارزة.

كان العبث
يتقطّع للخصور الرشيقة
ويفتّش غصونها المثمرة
بحثاً عن أسلحة دلالها
وبحثاً عن ربيعها المبتهج
وبحثاً عن الغنج الهارب من العدالة
والشموخ المعتزّ بطيب منبته.

كان العبث
يرمق الفيزياء بنظرة ارتياب
ويحقد على سجل إنجازاتها
ويخطط لتشويه سمعتها
وتلفيق التهم المضحكة لها،
وتحريم ملامسة أطرافها..
يلاحقها في الفصول الدراسية،
ويفتّشها في جميع حواجزه المرتجلة
بحثاً عن تفّاحة «نيوتن»
وصرخة «أرخميدس» ومخططات «إينشتاين»
وتأملات «ليوناردو دافنشي»
وأصابع الذرّات الكونية.

كان العبث
يغازل العملة الوطنية
ويغريها بتجربة مثيرة مع السقوط الأخلاقي
وبسهرة صاخبة، يضجّ منها الضحايا.

كان العبث
يكره النظام، والقوانين المحتشمة
ويحقد على حصاد المواسم
وتتعبه ضحكات الأطفال..
ويغار من سير عقارب الساعة
ومواقيت الصلاة، وإشراقة الصباح.

كان العبث
يمارس جنونه بتمزيق كتب المعرفة
ويهوي بمعوله فوق إناء الورد
ويذبح في نهاية كل شارع حمامة
ويغتال في نهاية كل سطرٍ الأمان.

كان التخلّف
يرهق ليل المدينة بعواء القذائف
وبأراجيفه المجافية للحياة
وببربريته المعمّمة بالجاهلية
وبوحشيته المحزّمة بأطماعه اللاإنسانية.

كان التخلّف
يطرّز المدينة بقذائفه المتحضّرة،
ويسقط فجائعه فوق عيون الأطفال
وفوق مقاعدهم المدرسية المتناثرة،
يطلق العنان للهمجية المسلّحة
لتمارس هيبتها على بساطة الناس
وعلى وداعة البيوت ونوافذها المشرعة على
آفاق المحبة.

كان التخلّف
يغافل الصمت والأعراف
ويبعث بتحيّاته المميتة
لكل شارع يحرّض الحياة
على أعداء الحياة.

كان القَطَل
يقود البطالة إلى ساحة البطالة
يمنحها دفعة من الاسترخاء المدعّم بـ «باور هاوس»
وحصّة من الأوهام المؤجلة،
وفي آخر الجلسة يطلب منها الرقص الثأري
والتضحية بحزام عفّتها
والتخلّي عن ثوابتها الوطنية.

كان القَطَل
يطلّ من سيارته المصفّحة
ويحيي قطعانه المهجّنة،
يبتسم لغيّها العميق، وسبات عقولها
ويدعوها إلى جلسة عامرة مع المجون
ومسيرة تضامنية مع الدمار.

كان القَطَل
يشمت من بني قومه،
ويسخر من تاريخ القات
وماضيه الخالي من «البودرة»
ومن سيرة الأنقياء الأولى،
ومن المزارع المنتظرة لعناق الأمطار
ومن «الموالعة» المحدودين في ذلك الوقت..
ومن المدافعين عن براءة البيئة
والمتصدّين لنفوذ الضلال
وغزو أسراب الجراد.

كان القَطَل
ينصب خيمته المشبوهة،
ويرحّب بجميع العاطلين عن الحياة،
وجميع مَنْ يكرهون ضوء الضمير والكلمات
ويحقدون على الإرادات والصباحات الحرة،
وجميع مَنْ يقدّسون خرافة الأموات
ودعاة الشتات ورعاع الفتن المستوردة.

كان المرقّط
يقف خلف الظلام، بكامل عدّته،
يلهج برطانة تتقيّاها الحروف،
ويرمق المدى بشراهة مخيفة.

كان المرقّط
يجوس عبق الأمكنة
ويخط تحت الأماني العابرة
متاريسه القادمة.

كان المرقّط
يعسكر الخوف في صفوف شعواء
ويسلّح الشوارع بأسلحة الكراهية الثقيلة،
ويمنح لقطاء الغلطات المطبعية
ألقاباً مخلوطة بألوان السعادة.

كان المرقّط
يلوّح لجدران غرفته بالوعود القديمة
ويهيّئ غروره لبطولة كاسحة
ويوقظ خيباته المنسية
لقطف ثمار المرحلة.

■ مقاطع من نص طويل

إصدارات ثقافية

هل يمكن أيضا إنقاذ أوروبا؟

■ إلى أين تمضي مسيرة التوحيد الأوروبي؟ هل ستتعزز أم هي مهددة بانفراط عقدها؟ و«هل يمكن أيضا إنقاذ أوروبا»؟ هذا هو الاستفهام الذي يشكل عنوان كتاب وزير التربية الفرنسي الأسبق وأحد شخصياتها الفكرية الهامة، كلود اليغر.

تتم الإشارة إلى عدد من الوقائع التي تثير الكثير من التساؤلات، إذا لم يكن من الشكوك. اليوم هناك الأزمة اليونانية وغدا قد تندلع الأزمة في ايرلندا أو البرتغال أو اسبانيا أو حتى فرنسا نفسها. هذه الوقائع الأزمات تدعو بالضرورة إلى التفكير الجدّي حول السبل إذا كانت ممكنة، لتجنّب تفجّر منطقة اليورو في المرحلة الأولى والتفكير الجدي أيضا حول مستقبل مسيرة التوحيد الأوروبي.

ويصبح التفكير بمثل هذه التحديات ضرورة أكبر عندما يبدو للعيان أن المؤسسات الأوروبية الراهنة لا تستطيع الاستجابة السريعة المستلزمات الحل في سياق عولمة تطبع العصر كله بطابعها. ثم يرى المؤلف أنه لا مناص من ملاحظة أن هناك تنافرا اجتماعيا واقتصاديا كبيرا بين بلدان الاتحاد الأوروبي السبعة والعشرين، ما يجعل من الصعب جدا الوصول إلى «صيغة حكم» فعّالة.

يضاف إلى هذا ملاحظة أن الشعوب الأوروبية عامة، وفي مقدمتها الشعب الفرنسي والشعب الألماني، رغم أن فرنسا وألمانيا تشكّلان محرك مسيرة التوحيد الأوروبي، لم تعد تؤمن كثيرا بأوروبا في نسختها القائمة والمطلوب منها أن تحقق التقدم الاجتماعي والنمو الاقتصادي وتأمين فرص العمل. هذا في الوقت الذي يقول فيه الواقع شيئا آخر، حيث أصبحت أوروبا «مرادفا» للبطالة وتمثل مربّعا خصبا لأولئك الذين يملكون الأموال، بينما تزداد فيها معاناة أغلبية الشرائح الشعبية التي تميل نحو الفقر.

مثل هذا الواقع يرى المؤلف أن له حلاً واحداً ناجعاً، هو التخلّص من حالة الجمود القائمة والعمل على إعادة صياغة المشروع الأوروبي وإعادة هيكلة كاملة لأوروبا، بحيث يمكنها أن تصبح من جديد أفقا «مرغوبا ومطلوبا» من قبل الأوروبيين. ويخلص المؤلف إلى القول ان هذا هو الحل الوحيد الذي يمكن أن يعطي للقارة القديمة موقعها المتقدم على المسرح العالمي. إن المهمة ليست سهلة فـ«العواطف مهددة» ولكن «انهضوا، فهذه العواصف مرغوبة»، كما ينهي كتابه.

الأزمات والعواصف كثيرة وعاتية، ولكنها تمثل بالوقت نفسه «مناسبات» للتأمل والتفكير و«تشغيل المخيلة». ويرى أنها تعاني أولا مما يسميه «مشكلة الصورة». ذلك أن هذه القارة التي تشكّل أكبر سوق في العالم وتمتلك على نسبة عالية جدا من المؤهلين وأصحاب الكفاءات يتم النظر إليها على أنها قوة «متواضعة» على رقعة الشطرنج الدولية. هذا فضلا عن أنها تعاني من أزمات مثلما في اليونان اليوم وفي ايرلندا بالأمس، وفي هذه الدولة أو تلك غدا. وهذا يهدد بنشوب أزمة عالمية جديدة.

ثم إن الأوروبيين أنفسهم ينظرون إلى أوروبا كما لو أنها غير قادرة على التأقلم مع المعطيات العالمية ـ الكونية الجديدة. تتم الإشارة هنا إلى أن مثل هذا التصور يتناسى واقع أن الإجابات التي قدمتها أوروبا على الأزمة العالمية لعام ٢٠٠٨ كانت من الأكثر فعالية، كما يشير كلود اليغر.

ويتعرض المؤلف بالشرح والتحليل للبنك المركزي الأوروبي الذي ينتظر نشوب أزمة كي يلعب الدور الذي ينتظره منه الأوروبيون. هذا في الوقت الذي ينبغي عليه أن يكون حافزا للاقتصاد وليس مجرّد النضال ضد التضخم والدفاع عن يورو قوي في الأسواق الدولية. ينقل المؤلف عن رئيس البنك المركزي الأوروبي قوله: دورنا الذي حددته لنا المؤسسات الأوروبية هو مكافحة التضخم.

ويجدد المؤلف القول انه من الأفكار الجيدة، والمطلوب العودة إليها هي تلك التي قال بها عام ١٩٧٧ كل من ليونيل جوسيان، رئيس وزراء فرنسا آنذاك، ودومينيك ستراوس كان، وزير اقتصادها والرئيس السابق لصندوق النقد الدولي، والتي رفضتها ألمانيا في حينها. ومفادها ضرورة إيجاد حكومة اقتصادية أوروبية. هذا بشكل تصبح فيه قلب أوروبا النابض. هكذا أيضا تغدو هناك حدود تجارية أوروبية محميّة من الاعتداءات الخارجية. وبالمقابل مزوّدة بقواعد مرنة للمنافسة الداخلية، خاصة فيما يتعلق بحماية الخدمات العامة للدول وآليات الضبط الاقتصادية والاجتماعية التي تتبناها.

في محصلة التحليل يرى المؤلف أن أوروبا لا بد منها، لكنها في حالتها الحالية تعاني من الكفاءة ومن درجة التكيف ومن سوء الاستخدام. وأوروبا مصابة بما يسميه المؤلف فيروس الحماس الأوروبي المكثّف الذي يدفع بالذهاب السريع أكثر مما ينبغي نحو الإفراط في تجاوز المشاعر الوطنية. هذا دون نسيان البيرقراطية المعطّلة التي يتميّز فيها عمل المفوضية الأوروبية.

الكتاب : هل يمكن أيضاً إنقاذ أوروبا؟
تأليف: كلود أليغر
الناشر: بلون . باريس٢٠١١
الصفحات: ١٩٦ صفحة
القطع: المتوسط

عصر التطرفات وتاريخ القرن العشرين

● ويقول هوبزباوم في التصدير الخاص الذي وضعه للترجمة العربية لـ» عصر التطرفات» إلى أنه يرمي إلى وضع تاريخ القرن العشرين في متناول القراء الشباب، ومنهم الطلاب، الذين لم تلامس تجربتهم وذكرياتهم تاريخ المراحل التي سبقت عام ١٩٩٠. ويصدق ذلك، بصورة خاصة، على البلدان الإسلامية التي تتراوح فيها نسبة من هم دون الخامسة عشرة من العمر بين ٣٠ و ٤٥ بالمائة من السكان.

ويضيف هوبزباوم: «إن البريطانيين قد أدخلوا عنصراً إضافياً غير متوقع إلى المنطقة عام ١٩١٧ بإصدار «إعلان بلفور» الأخرق الذي وعد اليهود بـ ’وطن قومي‘ غير محدد الهوية في فلسطين. ومع أن بريطانيا وفرنسا اتفقتا على اقتسام الشرق الأوسط بينهما في اتفاقية سايكس–بيكو عام ١٩١٧ – فاستولى الفرنسيون على سوريا ولبنان، والبريطانيون على بلاد ما بين النهرين، وفلسطين، وما كانوا يأملون في السيطرة عليه في شبه الجزيرة العربية – فإن الشرق الأوسط العربي ظل تحت الهيمنة البريطانية حتى خمسينات القرن العشرين. وهكذا، خضع المسلمون بين الحربين، مباشرة أو على نحو غير مباشر، وربما للمرة الأولى في تاريخهم، لحكام غير مسلمين، في مستعمرات رسمية، أو محميات مستقلة ظاهرياً . وباختصار، فإن الشرق الأوسط والعالم الإسلامي أصبح في بؤرة السياسات الدولية، بفعل موقعه الإستراتيجي وثروتها البترولية على حد سواء « . ويخلص هوبزباوم في هذا التصدير إلى أن منطقة الشرق الأوسط «كانت، وستظل، مزعزعة من الوجهة الاجتماعية»، وأن نهاية الحرب الباردة قد «تركتها أكثر قابلية للانفجار من أي وقت مضى... وإذا قدر لمشكلات المنطقة أن تُحل، فإن ذلك لن يتم على أيدي قوى خارجية، بل عن طريق قوى داخلية في المنطقة».

و يحلل هوبزباوم في «عصر التطرفات» أبرز التطوّرات العالمية خلال العشرين سنة الأخيرة منذ انهيار المنظومة الشيوعية حتى عام ٢٠١٠، ويقول في معرض حديثه عن الشرق الأوسط، وهو « أكثر مسارح النزاع الدولي سخونةً في العالم» «إن حلّ الدولتين، كما هو متصوّر في الزمن الراهن، لا يفتح أفقاً مستقبلياً يمكن الركون إليه في فلسطين... وأشك في أن يكون الأمر وارداً في اللحظة الراهنة. ومهما كان نوع الحل، فإن شيئاً لن يحصل ما لا يقر الأميركيون أن يغيروا رأيهم كلياً، ويمارسوا الضغط على إسرائيل. وليس ثمة ما يشير إلى حصول شيء من هذا القبيل».

ويعتبر إريك هوبزباوم (المولود عام ١٩١٧) من أبرز المؤرخين المعاصرين. درس وتولى التدريس في جامعات فيينا وبرلين وكامبريدج. وهو عضو في الأكاديمية البريطانية والأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم، ورئيس جامعة بيركبيك في لندن. وله مؤلفات عديدة حول التاريخ الحديث والمعاصر. وقد عرف بمعاداته للصهيونية والسياسة التوسعية الاستيطانية الإسرائيلية.

أما فايز الصياغ فهو باحث سوسيولوجي، وزميل زائر في مركز الدراسات الاستراتيجية في الجامعة الأردنية. عمل أستاذاً في جامعة تورنتو الكندية ونشر بالعربية والإنجليزية عددا من الدراسات التنموية والاجتماعية والثقافية. من ترجماته التي نال على بعضها جوائز عربية دولية مرموقة: "علم الاجتماع" لأنطوني غيدنز ، ورباعية هوبزْباوْم: «عصر الثورة»، و«عصر رأس المال»، «عصر الإمبراطورية» و«عصر التطرُّفات».

وفي لقاء خاص ، يرى الدكتور الصياغ أن جهوده في ميدان الترجمة تمثل إسهاما متواضعا في تعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية، والقراء العرب عامة، بالإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، وبالأعمال والمؤلفات الأجنبية المَعلمية الجديدة أو المتجددة القيمة، في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية والفنية بصورة خاصة. كما أنها تطرح قدوةً تُحتذى أمام جميع الباحثين والأكاديميين العرب. يقع الكتاب في ١١١٩ صفحة. وثمنه ٤٠ دولاراً أو ما يعادلها.